الطبيعة في شعر ابن عمار الأندلسي

م. منير عبيد نجم
جامعة بابل/ كلية التربية الأساسية

التمهيد:

الشاعر ابن عمار الاندلسي هو أبو بكر محمد بن عمار المهري الاندلسي الشلبي ذو الوزارتين الشاعر المشهور ولد سنة ٤٢٢هـ-١٠٣١م في قرية سنبوس قرب شلب في الجنوب الغربي من الأندلس[١].

انتقل ابن عمار إلى قرطبة في طلب العلم، يمدح أشخاصا مختلفين، وأول حظوة نالها كانت لدى المعتمد عباد ملك اشبيلية فجاء اليه سنة (١٠٥٣م) ومدحه بقصيدة رائية[٢].

وصحب المعتمد بن عباد ابن المعتضد منذ صباه فتأصلت بينهما الصحبة وتأكدت، وقد أدرك المعتضد أن حال ابنه المعتمد وحال الشاعر ابن عمار ذواتا خطر على ملكه فأحاطهما برقابة شديدة، ثم ابعد ابن عمار من اشبيلية سنه ٤٥٠هـ فمضى ابن عمار يتنقل في البلاد واستقر في سرقسطة وبقي بعيداً عن المعتمد إلى ان صار المعتمد بن عباد اميراً على اشبيلية بعد وفاة ابيه سنة (١٠٦٩م) وعندها وفد عليه ابن عمار وشغل وزارته[٣].

خرج ابن عمار إلى مدينة مرسيه في سنة (٤٧٤هـ) ليأخذها ويضمها إلى مملكته، ولكن العجب داخله والطمع سول له فاستبد بالمدينة وخرج من طاعة المعتمد، وبعد نحو سنتين (٤٧٦هـ) خرج إلى طليطلة، فاستبدل نائبه ابن رشيد بالأمر وخرج عن طاعة ابن عمار وأغلق أبواب مرسيه في وجهه[٤].

فتوجه إلى المؤتمن بن هود في سرقسطه سنه (٤٧٨هـ) واتفق ان تمرد احد اتباع المؤتمن بن هود في حصن من الحصون، فاقترح ابن عمار على المؤتمن ان يعيد المتمرد إلى الطاعة، واستطاع ابن عمار ان يعيد القلعة إلى السلطان المؤتمن ثم تمرد بنو سهيل في قلعة سقورة فجاء ابن عمار ليعيد هذه القلعة إلى السلطان المؤتمن ولكن بني سهيل خدعوا ابن عمار وقبضوا عليه وألقوه في السجن سنه ٤٧٧ هـ وبحثوا عن راغب في ابن عمار يدفع فيه الثمن واستطاع المعتمد ان يدفع ثمنه وسيق على أسوأ حال إلى المعتمد بن عباد ودخل إلى اشبيلية دخول الأسرى ونزل في احد سجون المعتمد واستعطف ابن عمار صديقه القديم بقصائد كثيرة ولكن دون جدوى ثم دخل علية المعتمد بن عباد وقتله بيده[٥].

كان لابن عمار ذكاء مفرط وطموح بعيد وثقافه واسعة، ضاع قسم من شعره وقيل انه احرق هجاءه قبل موته اما ديوانه فمفقود وقد جمع الدكتور صلاح خالص شعره في كتاب اسماه محمد بن عمار دراسة أدبية تاريخية (مع جمع شعره)، وشعره فصيح اللفظ متين السبك مشرقي الديباجه مع شيء من الرشاقة الاندلسية.

أما فنون شعر ابن عمار الاندلسي فهي المدح والعتاب والهجاء والوصف والغزل مع شيء من المجون.

---

١. ينظر الذخيرة: م ٢: ٢ / ٢٢١
٢. موسوعة شعراء الاندلس: ٢٣٧
٣. ينظر تاريخ الادب العربي: ٦٣٨/٤
٤. ينظر المختار من الشعر الاندلسي: ٩٢
٥. بغية الملتمس: ٢٢٧

المبحث الأول

وصف الطبيعة في شعر ابن عمار الأندلسي

توطئة

منزلة الطبيعة في الشعر الاندلسي

تعد الطبيعة – بكل ما تحتويه من الأسرار الكونية العظيمة – منهلاً عذباً، استقى منه الشعراء عِبر العصور الأدبية، فلم يدعوا شيئاً فيها إلاّ وصفوه، ولم يتركوا مظهراً من مظاهرها من غير أن يتحدثوا عنه باسهاب، وذلك أمر طبيعي، لغربة فيه، ولاسيما إذا ما علمنا أن الطبيعة هي التي تشعل الروح الشاعرة، وتدفع بالينبوع الكائن في أعماق النفس إلى التفجير والتدفق والانطلاق(١).

وقد اشتهرت الاندلس بطبيعتها الفاتنة، في جبالها وسهولها وانهارها وازهارها ورياضها وطيورها، وهي طبيعة خلبت الباب الشعراء فتغنوا بمفاتنها ومشاهدها، باثين فيها عواطفهم ومشاعرهم ولعل ما زادهم شغفاً بها اختلافهم إلى المتنزهات والحدائق المحيطة ببلدانهم(٢)، يقول صاحب معجم البلدان: ((أما الاندلس فجزيرة كبيرة فيها عامر وغامر. . . تغلب عليها المياه الجارية والشجر والسعة في الاحوال))(٣).

وقد جذبت الطبيعة انظار الشعراء. لأن الشاعر قبل كل شيء ذواق متسلح بإحساس مرهق لذا وجدنا ألفة بينه وبين الطبيعة فكأنها توحي إليه في لغة دقيقة واسلوب يستغلق فهمه إلا على الفنانين الذين يفهمون هذا الشعور ويحللون ذلك الادراك(٤)، فهاموا بها واقبلوا عليها بشغف يتغزلون في اوصافها ويصورون محاسنها ومفاتنها فوصفوا الرياض والازهار والفواكه والحيوانات وغيرها من مظاهر طبيعتهم الساحرة، وقد جاء معظم وصفهم تعبيراً عن استجابة النفس الشاعرة لرغبتهم في التمتع بجمال الطبيعة(٥).

لذا تجد من ابرز سمات الشعر الاندلسي انعطافهُ إلى الطبيعة وتصوير مناظرها ومشاهدها وما كان من تخلخل مظاهرها في كثير من أغراض الشعر الاندلسي(٦).

فالمقصود بالطبيعة اذن في هذا البحث وصف مظاهر الكون والحياة والأرض وما عليها من أحياء عدا الانسان، وقد قسمنا دراسة الطبيعة عند ابن عمار الاندلسي إلى الطبيعة الصامتة والطبيعة المتحركة وصف الطبيعة الصناعية.

أولا: وصف الطبيعة الصامتة

يراد بالطبيعة الصامتة، الظواهر الطبيعية التي في هذا الكون بارضه وسمائه فهي على هذا تشمل الرياض والازهار والاثمار والانهار كما تشمل اجزاء السماء وافلاكها وأمطارها وسحابها وبرقها ورعدها ويمكن تقسيم الطبيعة الصامتة في شعر ابن عمار الاندلسي على:

١- ينظر شعر الطبيعة في الادب العربي، د٠ سيد نوفل: ٢٠

٢- الشعر في عهد المرابطين والموحدين في الأندلس: ٤١

٣- معجم البلدان: ١/ ٢٦٢

٤- شعر الطبيعة في الادب العربي: ٢٢

١- الطبيعة في الشعر الاندلسي: ٣٥

٢- ملامح الشعر الاندلسي: ٢٥٥

أولا: وصف الرياض والأزهار والثمار.

وصف الرياض.

حظيت الرياض بالنصيب الأوفى من الوصف والتصوير في شعر ابن عمار الاندلسي فتفاعل معها حتى ملكت عليه حواسه متحسساً مفاتنها وخفاياها، فإذا أراد الشاعر مدحاً نمقه بوصف الرياض كقوله في مدح المعتمد مشبهاً إياه بالروض الجميل[١]:

مـــلكٌ يَروقُكَ خَلقُهُ أو خُلقُهُ كالروضِ يَحسنُ منظراً أو مَخبراً

أُعلمتُ بالإيمانِ حتى شِمتُهُ فَرأيتُهُ في بُردَتيهِ مصـــــــــوراً

إذ استوحى الشاعر الطبيعة الاندلسية وما فيها من صور الرياض الخلابة رفدت معاني المديح، فالشاعر يصف أخلاق الأمير وخلقه بالروض الحسن الذي يطيب النظر إليه والاستمتاع بجماله الذي يبعث الامل والاطمئنان في نفس الشاعر.

وفي مشهد آخر نجد الشاعر يعقد موازنة بين الروض الجميل ذي النسيم العليل ورغبته ولهفتهُ للحصول على عطاء الأمير المعتضد، إذ يقول[٢].

ولئِن وجدتَ نسيمَ حَمدي عاطِراً فلقد وجدتُ نسيمَ برِكَ أعطَرا

واليكها كالروضِ زَارتهُ الصِـــــبا وحنا عليهِ الطلُ حتى نـــــورا

وإذا تغزل تراءى له في الرياض وجه جيبته ووجد فيها شبيهاً لها في مفاتنها وحسن طلعتها، إذ نجد ابن عمار في كثير من غزله يمزج بين حبه وعناصر الطبيعة مزجاً لا نعرفه عند المشارقة إلا نادراً[٣]، إذ نراه يشترك تلك العناصر معه في مشاعره وأحاسيسه. كقوله[٤].

أما ونسيمِ الروضِ زار نسيمها فأهدتهما نحو المشوقِ جنوب

إذا مزج نسيم الروض مع نسيم محبوبته ليجعلها حالة واحدة.

وأيضاً قوله[٥]:.

حَكتْ الغصونُ جمالَ قَدكَ فانثنتْ والفَضِل للمحكي لا للحاكي

فمزج الشاعر بين الطبيعة والغزل بأسلوب جميل يستوحي صورته من روض جميل بهي المنظر.

وفي بيت آخر يمزج الشاعر بين سعة الروض وكرم الممدوح ليصل إلى مبتغاه في الحصول على العطاء كقوله[٦]:.

هصرتَ يدي غِصنُ الفتى من دوحةِ وجنتْ به روضُ السرورِ منوراً

---

١. محمد بن عمار الاندلسي، دراسة تاريخية ادبية، د. صلاح خالص: ١٠٦.
٢. المصدر نفسه: ١٩٤.
٣. بلاغة العرب في الاندلس: ٤٥.
٤. محمد بن عمار: ٢٤١.
٥. المصدر نفسه: ٤٢
٦. المصدر نفسه: ٢٢١

وصف الأزهار:. لم يكتف ابن عمار الاندلسي بالترنم مع الرياض والاهتزاز طرباً وإعجابا بما تضمه من مفاتن تثير أخيلته، بل جذبته الأزهار بأريجها وألوانها الزاهية وعبقها الفواح فانتشى بها وسكر بشذا عطرها الأرج، قال ابن عمار مغتزلاً[١]:

مُتأرجحِ الحركاتِ تَندَى ريحهُ كالغصنِ هزَتُهُ الصبا بتنفسِ

يَسعى بكاسٍ من أناملِ سوسنٍ ويديرُ أخرى من مَحَاجرِ نرجسِ

وفي مشهد آخر نرى الشاعر يتخذ من منظر سقوط الندى على أورق الأزهار لتصوير كرم الممدوح(٢):

وما هذهِ الأشعارُ ألا مـجامرٌ تطوع فيها للنديَ قطع النـدى

وكنتَ نشرتَ الفضَل في وإنما نشرتُ سقيطَ الطلَ في ورقِ الوردِ

والمعنى نفسه يتكرر عند الشاعر في توظـيف منـاظر الطبـيعة (العنبر والزهر) لوصف كرم الممدوح(٣):

فاحَ الثَرى متعطراً بثنـائِه حتى حَسِبناَ كل تُربٍ عنبراً

وتتوجتْ بالزهرِ صَلعَ هِضابهِ حتى حسبنا كَل هضبٍ قيصرا

وفي صورة أخرى يتكِئ على التجسد مشبهاً الروض بالحسناء الذي يجللها الزهر(٤):

والرَوض كالحَسنا كساهُ زَهرُهُ وَشياً وقَلَدهُ نداهُ جَوهَرا

إذ نجد الأقحوان حاضراً في مخيلة الشاعر عندما ينظر إلى ثغر حبيبته قائلاً(٥):

وثغرٍ كمثلِ الأقحوانِ يشوبهُ لمى حسنات الصبرِ عنهُ ذنوبُ

وصف الثمار:. وصف بن عمار الاندلسي الأثمار وان كان حضورها في شعر الشاعر اقل مما نجده في وصف الرياض والازهار، ولعل السبب في ذلك هو أن الزهر شيء جمالي بألوانه ورائحته يثير في نفس الشاعر احاسيس وانفعالات لا تحركها الثمار التي هي غالباً ما تكون مادة طعام وليست وسيلة زينة وتجميل(٦).

فقد أهدى الشاعراً بن عمار الاندلسي إلى صديقه عيسى بن لبون تفاحاً واجاصاً وقال معها(٧):

خذها كما سَفرت إليك خدودُ أو أوجستْ في راحتيكَ نهودُ

حذرا من التفاحِ نشراً بينها ولها باغصانِ الجِنان عقودُ

وشفعتُ بالاجاص قصداً انه شكلُ الجمالِ وحدهُ المحدودُ

عُذراً اليك فانما هي اوجهٌ بيضٌ تقابلها عيونٌ سـودُ

وفي مشهد آخر نجد شاعرنا اهدى إلى بعض اخوانه خمراً مع تفاحتين ورمانتين مصوراً الخمر بالعروس التي لا تزف إلا لأشراف القوم، ثم عطف ذلك بوصف التفاحتين والرمانتين مشبهاً إياهما بثديي فتاة وخدي غلام(٨):

خُذهما مِثلما استهديتموها عروساً لا تنزفُ إلى اللئامِ

ودونكمُ بهما ثديي فتاة اضفت اليهما خدي غلامِ

---

١. محمد بن عمار: ٢٩٧
٢. المصدر نفسه: ٢٩٧
٣. المصدر نفسه: ١٩٢
٤. محمد بن عمار: ١٨٩
٥. المصدر نفسه: ٢٤٠
٦. الشعر في ظل بني عباد: ١٢٢
٧. محمد بن عمار: ٢٩٣
٨. الذخيرة ٢/ ٢٦٠

ثانياً: وصف الأنهار والجداول:.

لقد كان لوصف المياه بما يتركه خريرها الشجي من اثر، وما يوحيه شكل النهر وانسيابه وصورة الظلال المنسرحة على صفحة النهر أثراً عميقاً في شعر ابن عمار الاندلسي، يظهر ذلك جلياً في قوله(١):

ومطرد الأجزاءِ يصقلُ متنهُ حبا اعلنتْ للعينِ ما في ضميرهِ

جريحٌ بأطراف الحصن كلما جرى عليها شكا أو جاعه بخريـرهِ
كأن حبا ريح تحت حـبابه فاقبل يلقي نفسهُ في غديـرهِ

فالنهر عنده جريح من جراء سيره على الحصى جاعلا خريره تعبيراً عن حالة الوجع الذي يعانيه.

وفي صورة أخرى يتخذ الشاعر من مشهد سيل النهر وتموج مياهه صورة لوصف شجاعة الممدوح إذ يقول[٢]:

روضٌ كأنَ النهرَ فيه معصمٌ صافٍ اطل على رداءٍ اخضـرا
وتَهُزه ريحُ الصبا فتخـالهُ سيفَ ابن عبادٍ يُبددُ عَسـكرا

مصوراً النهر الممتد في الروض كأنه معصم اليد والروض الذي حوله اخضر جميل وعندما تهزه الريح تموج مياهه جاعلاً النهر سيف الممدوح والتموج عسكراً يبدده ابن عباد.

وفي موضوع آخر يصور لنا الشاعر ليلة عاشها بجوار المعتمد على نهر ينساب بهدوء ورقة متخيلاً أمواجه وكأنها حيات تنساب[٣].

وليلٍ لنا بالسدِ بين معاطفٍ من النهرِ ينسابُ انسياب الأراقمِ

كما كان لمشهد الزوارق وجريانها على متن النهر حضورٌ في وصف الطبيعة عند ابن عمار إذ يقول[٤]:

وجاريةٌ مثل الهلالِ ألفتــها على النهرِ مثل السماءِ رقيقُ
تجلى لنا الإصباحُ وهو زمـردٌ فألقتْ عليه الشمسُ ثوب عقيقُ

مصوراً الزورق وكأنه هلال والنهر لشدة صفائه كانه سماء رقيقة.

وفي موضع طلب الاستعطاف من المعتمد نراه يوظف حركة البحر في قوله[٥]:

اليوم قد أصبحتُ في غمرا تهِ أن لم تغثني رحمةً تنجيني
بعدت سواحله علي وأدركت أمواجه فتلاعبت بسـفني
لاشك في أني غريق عُبـابه أن لم يمد الفتح لي بيـمين

فهو يرى المعتمد بحراً أصبح في غمرا ته فهو عرضه للهلاك إنْ لم يغثه الممدوح بالعطاء.

---

١. محمد بن عمار: ٢٥٣
٢. المصدر نفسه: ١٨٩
٣. المصدر نفسه: ٢١٠
٤. المصدر نفسه: ٢٢٨
٥. محمد بن عمار: ٣١٥

ثالثاً: وصف الأمطار:.

لقد حظيت الأمطار وما يصحبها من غيوم وبرق ورعد وبرد وما يرتبط بها من ندى وطل بنصيب وافر في شعر الطبيعة عند الشعراء الاندلسيين، فابن عمار يرسم لنا لوحه فنية رائعة ليوم غائم تناثر فيه حبات الطل على أرض عنبرية والشمس عادت مثل الجارية التي تعرض في سوق النخاسين.

يومٌ تكاثفَ غيمهُ فكـانهُ دون السماءِ دخانُ عودٍ اخضـرِ

والطلُ مثلُ برادةٍ من فضـةٍ منشورةٍ في تربةٍ من عنــبرِ
والشمسُ احياناً تلوحُ كأنهـا امةٌ تعرضُ نفسها للمُـشتري

وفي مشهد الحنين إلى الوطن نراه يوظف سرعة البرق رسولاً إلى دياره في شلب[١].

يا برق أدِ رسالتي تفديكَ نفسي من رسولِ
عَرج بشلبٍ محـييا ماشئتَ من تلكَ الطلولِ

وفي صورة أخرى نجد الشاعر قد مزج مابين ذاته ومشاهد الطبيعة فيجعل (الغمائم تبكي) و(الرعد يصرخ) و(البرق يحارب) وكأن الطبيعة تشاركه أحزانه وإرهاصات نفسه قائلاً[٢].

عليَ والا ما بكاءُ الغـمائمِ وفيَ والا ما نياحُ الحــمائمِ
وعني أثار الرعدُ صرغةَ طالبٍ لثائرٍ وهزَ البرقُ صفحةَ صـارمِ
وهلَ شققتْ هوج الرياحِ جيوبها لغيري أو حنتْ حنينُ الـروائمِ

وفي موضع آخر نراه يتكئ على صورة السحاب الغادق بالمطر لوصف كرم الممدوح[٣].

أنت الحلال الحلو رقَ طبـيعةً وصفَا مزاجاً كالسحابِ الغادي

رابعاً: وصف الجبل:.

لم يتوقف الشعراء الذين تعرضوا لوصف الجبل عند تضاريسه وظواهره، لكنهم اعجبوا بعظمته وشموخه فكان بذلك رمزاً للخلود والقوة، لذلك نجد الشاعر يوظف هذه الخصوصية في وصف قائد جيوش المعتضد قائلاً[٤]:

يا سائلي ما حمصُ الا خـاتمٌ أبصرتُ اسماعيلَ فيه خِنصرا
منَ لا توازنهُ الجبالُ اذا أحتبى من لا تسابقهُ الرياحُ إذا جرى

وفي مشهد آخر نجد الممدوح جبلاً ارتفعت له ذؤابتان إلى العلا وله هضاب ولكن هضاب أرست على التمكين[٥]:

جبل سما بذؤ ابيتهِ إلى العلا ورسا بهضبتهِ على التمكينِ

---

١. محمد بن عمار: ٢٤٨
٢. المصدر نفسه: ٢٢٤
٣. المصدر نفسه: ٢٧٥
٤. محمد بن عمار: ١٥١
٥. المصدر نفسه: ٢٤٧

خامساً: وصف الليل والنهار: لقد كان لارتباط الليل والنهار والعلاقة الكونية بينهما أثر في وصف الشاعر فعندما يصور علاقته بالقلم يتخذ من علاقة الليل والنهار خير وسيلة لذلك[١].

نحنُ خليلانِ ما دعانا للوصلِ ودٍ ولا اختيار
نفصلُ ماكان ذا اتصالٍ كأننا الليلُ والنهـارِ

ويوظف الشاعر علاقة الليل والنهار في وصف الشجاعة ممدوحة حتى أن المعركة عند المعتمد تبدأ ليلاً ويحسمها مع انبثاق عمود الصباح[٢].

وربَ ظلامٍ سار فيه إلى الهدى ولا نجم إلا ما تطلعَ من غمدِ
اطلَ على قرمونة متــبلجاً مع الصبحِ حتى قيل كان على وعدِ

وفي موضوع اخر يصف ابن عمار ليلة الشراب وصفاً جميلاً[٣].

دع الساعات تبسـتطهُ ستقبــضهُ يد الفجرِ

ثانياً: وصف الطبيعة المتحركة: ويراد بها كل ما يجري فيه الحياة وينبضها بالحركة ماعدا الإنسان.

أولاً: وصف الخيل:. الخيول من الحيوانات التي جذبت الشعراء الاندلسيين فأكثروا القول فيها وفي أوصافها ولاسيما سرعتها وشدة جريها وألوانها وكل ما يتصل بمظاهر القوة والشدة[٤]، كقول ابن عمار[٥]:

وأقبلنها الخيل حمرُ البنو دِ دهم الفوارسِ بيضُ الغرر

ويطالعنا ابن عمار الاندلسي بصورة رائعة في وصف الخيول وسرعتها قائلاً[٦].

من العابساتِ ألدهم الا التفافهٌ إلى غرةٍ أهدت لهُ ثغرَ باسم
طوى بي عرض البيد فوق قوائمِ توهمتني منهنَ فوق قـوادمِ
وخاض بيَ الظلماءَ حتى حسبتهُ له مربطٌ بين النجومِ العـواتمِ

فقد تناول الشاعر في هذه الصورة أعضاء الخيل وقوتها وذكائها وهي تخوض الأرض المظلمة معرباً عن شغفه واعتزازه الذي كان يساوره تجاه هذا الحيوان، فمن المعروف ان العربي قد احب الخيل وحرص عليها لما تحمله من رموز ومعان كثيرة يحبونها ويفتخرون بتحقيقها كالبطولة والشجاعة والرجولة[٧].

ولتصوير شجاعة ممدوحة نجد الشاعر يتكئ على وصف سرعة الخيل وبعض صفاتها لتصوير هرب حاكم غرناطة – باديس بن حبوس – الذي لم يقوَ على وضع اللجام على فرسه لشدة خوفه[٨]:

كأني بباديسٍ وقد حطَ رحلهُ إلى الفرسِ الطاوي عن الفرسِ النهدِ
الى الفرسِ الجاري به طلق الردى سريعاً غنياً عن لجامٍ وعن لبـدِ

---

١. محمد بن عمار: ٢٤٧
٢. المصدر نفسه: ٢٤٧
٣. المصدر نفسه: ٢٣١
٤. الشعر في ظل بني عباد: ١٢٣
٥. محمد بن عمار: ٢٠٠
٦. المصدر نفسه: ٢١٤
٧. الطبيعة في الشعر الاموي (رسالة ماجستير): ٩٥
٨. محمد بن عمار: ٢٠٩

ثانياً: وصف الطيور من الطيور التي استقطبت اهتمام الشعراء الاندلسيين هو وصف الحمام متخذين منه وسيلة لتصوير لواعج الحب والشوق لمحبوبهم، فنجدا بن عمار الاندلسي في احدى صوره يتخذ من ذكر (الحمام) وما يولده من أثر حزين في نفس الشاعر وسيلة لذكر هجر الحبيب[١]:

وما لحمام الأيك تبكيكَ كلما تبـسم ثغرٌ للصباحِ شنيـبُ
تغنى فما تنَفك تشربُ نخبهُ من الدمعِ يهديها اليك وجيبُ

والمعنى نفسه يتكرر في قوله[٢]:

عليَ والا ما بكاءُ الغمـائمِ وفي والا ما نيـاحُ الحمائـمِ

وقوله[٣]: زمنٌ ستبكيهُ الحـما مُ معي وتذهل عن هديـلِ

والحق ان الحمامة لم تنح ولم تبك ولم تحزن، ولكن الشاعر هنا إذ يسمع هديلها، وكان هو ملتاع النفس حزين القلب خلع حزنه عليها وتصورها تحن وتبكي معهُ.

وفي موضوع آخر يتخذ من مشهد الطائر الذي قُص جناحيه فلا يستطيع الطيران صورة لتصوير حنينه إلى غرناطة[٤]:

احنُ إلى غرناطه فوق متنـهِ كمَا حنَ مقصوص الجناحِ إلى الوردِ

ثالثاً: وصف الظباء والمهاة والرشا: أكثر الشعراء الاندلسيون من ذكر (الظباء والمهاة والرشا) وأوصافها والتشبيه بها في طول العنق وملاحة العيون، نصاعة اللون، إذ راقهم فيها تناسق الأعضاء ورشاقتها فشبهوا بها كل ما وجدوه لائقاً في نظرهم جميلاً في نفوسهم، وكثيراً ما ارتبط ذكرها عندهم بغرض الغزل[٥]، فنجد ابن عمار الاندلسي عندما يتغزل بالمرأة يقول[٦]:

فتاةٌ عداها الحزن حتى كأنها هي الحسنُ أو آلف عليه حبيبُ

فعينٌ كما عينُ المها ومقلد كما ارتاع ظبيٌ بالفلاة غريبُ

وفي مشهد آخر نجد الشاعر يصور حبيبته رشا يتغزل بها قائلاً[٧]:

رشا يرنو بنرجسهٍ ويعطو بسوسان ويبسم عن أقاحِ

تشيرُ اليه قرطاةٌ وتصغي خلاخله إلى نغمِ الوشاحِ

وفي صورة أخرى يصور الشاعر عاطفة الجمال عن طريق ذكر جمال الرشا[٨]:

رَشا راشَ لي سهام المنايا من جفونٍ سبا بهن القلوبا

وقوله أيضاً[٩]: غزا القلوب غزالٌ حجت إليه العيون

خط في الخد نون وآخر الحسنِ نون

---

١. محمد بن عمار: ٢٠٩
٢. محمد بن عمار: ١٠٨
٣. المصدر نفسه: ١١٠
٤. محمد بن عمار: ١٠١
٥. الطبيعة في الشعر الاندلسي: ٦٥
٦. محمد بن عمار: ٢٠٩
٧. الذخيرة: ٢/٢٢٦
٨. محمد بن عمار: ١٠٦
٩. الذخيرة: ٢/ ٢٢٥

ثالثاً: وصف الطبيعة الصناعية:.

لقد كان الشاعر الاندلسي يبحث عن الجمال ويتلمسه في كل الاشياء التي احاطت به وشاركته وجوده، فأينما وجد لمحة من لمحاته أو لفتة من لفتاته وصاغها في قالب شعري، وقيدها باحرف رشيقة وكلمات رقيقة[١].

وكان للتطور العمراني في الأندلس أثر بارز في تطور فن الوصف عندهم فقد حفلت مدنهم بالقصور الانيقة التي ولع الملوك والامراء بها واسرفوا في زغرفتها والحقوا بها البساتين الغناء والبرك التي تحيط بها التماثيل من كل جانب[٢]، ويعد ابن عمار الاندلسي من الشعراء الاندلسيين المجيدين في هذا الجانب، فله قصيدة في وصف قصر دمشق يقول فيه[٣]:

كلَ قصرٍ بعد الدمشق يذمُ فيه طاب الجنى وفاح المتمُ

منظرٌ رائقٌ وماءٌ نميرٌ وثرى عاطرٌ وقصرٌ اشمُ

بتُ فيه والليل والفجر عندي عنبر اشهب ومسكٌ اجـمُ

وفي موضوع اخر نجد الشاعر يصف حصن سقورة قائلاً[٤]:

عال كأن الجن إذ مردت جعلتةُ مرقاة إلى النسـرِ
وحش تناكرت الوجوه به حتى استرابت صفحة البدرِ
قصر تمهد بين خافقتي نسرين من فلكٍ ومن وكرِ
فتحير سال الوقار علـى عطفيه من بر ومن كبـرِ
ملكت عنان الريح راحته فجيدها من تحته تجـري

فقد انبهر الشاعر بهذا الحصن وارتفاعه واظهر اعجابه الشديد به، كما مزج الشاعر عبر وصف الحصن بين الطبيعة الصامتة المتمثلة (البدر، الريح) والطبيعة المتحركة المتمثلة (النسر، الوحوش).

وفي موضع آخر يطالعنا الشاعر ببيتين جميلين وصف خلالهما طبق من فضة مذهب الباطن قائلاً[٥]:

وسماء من الغنى قد سالت ذهبا في قرارةٍ من لجينِ
فاجتثت حولها العيون بلطفٍ زهر الحسن من بنات اليدينِ

ناقلاً لنا جمال هذا الطبق وحالة ترقب العيون عليه وانمال اليدين التي تحمله والتي أضافت عليه جمالاً ورونقاً، ويعد هذا الوصف من الطبيعة الصناعية.

---

١. في الشعر الاندلسي: ٣٤
٢. الشعر في ظل بني عباد: ١٢٤
٣. محمد بن عمار: ٣٠٢
٤. المصدر نفسه: ٣٠١
٥. محمد بن عمار: ٢٥٥

المبحث الثاني

الطبيعة ونفسية الشاعر

لاشك أن الطبيعة هي الملهم الأول لكل شاعر يستمد منها أوصافه ويتأثر بها ويؤثر فيها، ويختلف مقدار هذا التأثير من شاعر لآخر، فمنهم من يقف عند حد المرئيات ينقل اليها ما في الطبيعة ملوناً تلويناً خفيفاً بشعره ومنهم من يشخص ملامح الطبيعة ويخلع عليها الحياة، وينفذ بصيرته الملهمة إلى سرها ويهيم معها في اودية الخيال فيغترف من ينابيعها ويقتطف من آثارها[١]، فالشعر فن لذا فهو ليس تقليداً كاملاً للطبيعة يعكسها كما تعكس المرآة مشهداً من المشاهد إنما يعبُّ من معطيات الطبيعة ويصورها كما يلقاها معكوسة في عدسة الذات الإنسانية، ذات الفنان التي تخصبها بأجوائها واتجاهاتها ورؤياها[٢]، ولهذا

السبب اعطى الشعراء الاندلسيون صفات انسانية لهذه الطبيعة، فجعلوها تبكي، وتضحك، وتحزن، وتفرح وهم بذلك يعكسون مشاعرهم عليها.

ولعل من الامور التي تلفت نظر الباحث المتأمل في وصف الطبيعة في شعر ابن عمار الاندلسي ان هذا الشعر بصورة عامه لا يكاد يخلوا نموذج من نماذجه أو صورة من صوره من التعبير عن نفسية الشاعر وتصوير شخصيته.

وإذا ما عرفنا ان الشاعر هو إنسان قبل كل شيء يحس ويشعر ويتأثر بما حوله ولا بد ان يضاف إلى هذا – بوصفه شاعراً – سرعة في التأثير ورهافة في الحس والقدرة على التعبير والتصوير[٣]، فهو انسان فنان وليس انساناً اعتيادياً فاذا ما تقلب في أحوال حياته ومرت به مراحل وازمات وتحققت له أهداف أو بعدت عنه آمال وتمنيات ظهر ذلك في أثناء شعره فقد يكون مضطرباً ضيق النفس شديد الضجر أو يكون مطمئناً فرحاً متفائلاً ينظر إلى ما حوله ويرى فيه املاً باسماً بشرى سارة فتطمئن نفسه ويرتاح باله وقد يكون بعيداً عن الاهل في غربة ووحشة أو سجن فيظهر ذلك على نفسه وعلى أسارير وجهه وهو في هذه الأحوال جميعها يصور ما يحس ويشعر به[٤].

وإذا ما طالعنا حياة الشاعر ابن عمار الاندلسي تجدها قد مرت بمراحل وادوار متعددة أثرت كلها في شعره بصورة بارزة جعلت شعره يغلب عليه الطابع النفسي والاعتراف غير المباشر لذلك فان تناوله للطبيعة أو توظيفها في شعره جاء على وفق المرحلة التي يعيشها أو الظروف التي رافقت حياته.

فقد لجأ إلى وصف الطبيعة الهادئة التي تبعث في النفس الراحة والاطمئنان ولاسيما في المرحلة الأولى من حياته عندما كان متكسباً في شعره مادحاً للملوك والامراء ثم صار وزيراً. إذ كانت نفسه مفعمة بمشاعر الرضى يلفها التفاؤل وتغمرها الطمأنينة فتضفي على مشاهد الطبيعة انساً وحبوراً كقوله في المعتمد[٥]:

راحاً اذا هبَ النسيمُ حسبتها مســـــروقة الانفاسِ من رياكا
في مجلسٍ بسط الربيعُ ذبساطـه زهراً ورقرقه عليك اراكـــــــا
سقط الندى فيه سقوط نداكما وجلت عليه الشمس مثل سناكا

١- ينظر الطبيعة في الشعر الاموي (رسالة ماجستير): ٥
٢- ينظر المصدر نفسه: ١٦
٣- ينظر الصورة الفنية عند ابن زيدون (رسالة دكتوراه): ١٢٠
٤- ينظر مسائل فلسفة الفن المعاصر، جان ماري جيتو: ٣٢
٥-محمد بن عمار: ٢٠١

فالصورة مستوحاة من الطبيعة الجميلة التي تبعث السرور في النفس المتلقي وفي وصف الجدول يقول الشاعر[١].

ومطرد الاجزاءِ يصقل متنه صباً اعلنتَ سرَ الندى في ضميرهِ
كأن جبابا ريح تحت جبايه فسارع يرمي نفسه في غدير

إذ راح الشاعر يستدر معطيات التشخيص ليكون وصفه دقيقاً وذا جمال فقد تخيل الجدول انساناً أعجب بالغدير فيقبل على رمي نفسه فيه.

وفي صورة أخرى يتمادى الشاعر في الأنسنة والتشخيص فلا يكتفي بان يرى الاشياء حية انسانية ويتفاعل معها بل يحمله خياله لمخاطبة الجمادات التي يراها وكانها تكاد تنطق[٢].

حكت الغصونُ جمال قدك فانثنت والفضل للمحكي لا للحاكي

ففي جميع هذه الصور نجد أن الشاعر يعتمد على وصف مناظر الطبيعة الهادئة الساحرة والتي تبعث السرور والتأمل في نفس المتلقي، ولعل ذاتية الشاعر وشاعريته تظهر بشكل اكبر في ألمرحلة الثانية من حياته بعد أن عانى النفي والسجن فانقبضت نفسه وأظلمت، يظهر هذا جلياً في قوله[٣]:

أيظلم في عيني كذا قمر الدجى وتنبو بكفي شفرة الصارم العضبِ

فالقمر الذي لم يكن قمراً فحسب وانما كان قمر الدجى، فاذا به في عين شاعرنا هو الظلام أو سبب الظلام.

فنجد الشاعر لا يصور الطبيعة شيئاً مستقلاً منفصلاً له وجود ذاتي محدود بل يضفي عليها ما يتحمل من انعكاسات واضطرابات نفسيه لذلك فان هذا النوع من الوصف للطبيعة هو في الواقع امتداد لنفس الشاعر ومأساته عبر وصف الطبيعة، تبقى في احد صوره يذكر الشاعر غربته عن وطنه من خلال وصف النخلة والخليج قائلاً[٤]:

واذكر على زمنٍ قطع نـــــاه بصافيه شمـولِ
إذ نســـحب الاذيـال ما بين الخليج إلى النـخلِ
زمن ســـتكيه الحمـا م معي وتذهل عن هديلِ

فالاغتراب عند الشاعر اغتراب نفسي اذا ذكر النخيل والخليج والشاعر في هذه الصورة يبكي على هذا الزمان وجعل الطبيعة تبكيه وحنينه يعود لظروف الشاعر وغربته عن وطنه.

إذ اتكأ الشاعر في هذه المرحلة من حياته على صور الطبيعة المرعبة المؤلمة ليصور حالته النفسية المضطربة فأجاد في انتقاء صورة والفاظه ايما اجادة كقوله بعد ان نفاه المعتمد من اشبيلية[٥].

عليَ وإلا ما بكاء الغمائـمِ وفي والا ما نياح الحمائـمِ
وعني أثار الرعدُ صرخة طالبٍ لثأر وهز البرق صفحة صارمِ
وهل شققتْ هوج الرياح جيوبها لغيري أو حنت حنين الروائمِ

١- محمد بن عمار: ٢٥٣
٢- المصدر نفسه: ٢٤٢
٣- المصدر نفسه: ١٠٥
٤- محمد بن عمار: ٢٢٣
٥- محمد بن عمار: ٢٢٣

إذ ستعمل المشاهد الطبيعية الصاخبة التي تمتاز بالضجيج وعدم الاستقرار تكشف لنا حالة الخوف والاضطراب التي كان عليها الشاعر موظفاً ((بكاء الغمائم ونياح الحمائم)) تعبيراً عن حالته فهو مكلوم الفؤاد ومحزون النفس، وتكاد تكون صورة الشاعر التي قالها في السجن أيضاً مطابقة للمنفى من حيث تصوير آلامه ومعاناته متخذاً من مناظر الطبيعة معادلاً موضوعياً لنفسه المضطربة[١]:

وانتحب في صلاصل الرعدِ تحكي ضجتي في سلاسلي وقيوده

وأيضاً قوله[٢]: بعدت سواحله عليَ وأدركت أمواجه فتلاعبت بسفني

وقوله[٣]: وبين ضلوعي من هواه تميمه ستنفع لو ان الحمام مجلحِ

فصور الطبيعة في سجنه هي صور الطبيعة الساخطة المضطربة المتمثلة (صلاصل الرعد والحمائم المجلح والامواج).

وهكذا نجد أن الطبيعة في شعر ابن عمار الاندلسي هي طبيعة مضمرة تشتغل في ذهنه فيوظفها لتصوير ارهاصات نفسه اذن فما نجده من شعر للطبيعة عنده ليس صورة لها كما هي، أو تفصيلات لحقائقها كما توجد مستقلة، بل كما تخيلها الشاعر متأثراً بعاطفته ٠فالطبيعة التي نراها في شعره طبيعة منعكسة على مرآة خاصة هي نفس الشاعر، ملونة بألوان خاصة مستمدة من شخصيته ومزاجه ولهذا رأينا شعره في الطبيعة يحفل بكثير من البوح عن حقيقة نفسه خاص في تصوير احزانه وآلامه في المنفى والسجن.

خاتمة البحث

١. ابن عمار الاندلسي، واحد من الشعراء البارزين في عصر ملوك الطوائف، كان ذا طموح بعيد وثقافة واسعة، غير انه كان قليل المبالات بالعرف والمثل العليا عند السعي لتحقيق مآربه في الحياة. ضاع قسم من شعره وقيل انه احرق قبل موته.

٢. مرَّ ابن عمار الاندلسي في حياته بمرحلتين أثّرتا فيه أيما تأثير وكان حضورهما جلياً في شعره، مرحلة كونه متكسباً في شعره متنقلاً بين الدويلات والامارات مادحاً للملوك والأمراء كان ذلك قبل دخوله في المعترك السياسي، المرحلة ألثانية مرحلة نفيه وغربته عن وطنه ثم دخوله السجن.

٣. امتاز وصف الطبيعة في شعر ابن عمار الاندلسي

أ. خدمته للأغراض الأخرى فهو كثيراً ما يكون متكئاً وسلماً للتوصل إلى المدح أو الغزل أو الخمر.

ب. جاء بعضه على شكل مقطوعات منفردة مستقلة لا يشاركها غرضٌ آخر أو يتوصل معها إلى موضوع أجنبي غيرها.

٤. لم يقف وصف الطبيعة في شعر ابن عمار عند الوصف الخارجي والاقتباس من بهرجها وبريقها إذ كانت علاقته بالطبيعة اكثر من ذلك أو أعمق، فقد خلع عليها أحاسيسه ومشاعره وأعطاها من نفسه وخلجاته وامتزج بها شعرياً وانسانياً، فكان يرى فيها صورة من نفسه ومرآة لأعماق شخصيته موظفاً اياها لتصوير لواعج نفسه وأحاسيسه.

١-محمد بن عمار: ٢٠٩

٢- المصدر نفسه: ٣٠٩

٣- محمد بن عمار: ٣٠٩

المصادر والمراجع

١- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس احمد بن يحيى بن عمير الضبي، مطبعة روخس مدينة مجريط ١٨٨٤م٠

٢- بلاغة العرب في الأندلس احمد ضيف ط٢/مصر مطبعة الاعتماد ١٩٣٨م٠

٣- تاريخ الأدب العربي /د٠عمر فروخ ج٤/الأدب في الأندلس والمغرب، دار العلم للملايين /بيروت ٠

٤- الذخيرة في محاسن أهل الجزيزة أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني /جامعة القاهرة ١٩٣٩م٠

٥- شعر الطبيعة في الأدب العربي د٠سيد نوفل/القاهرة ١٩٤٥م٠

٦-الشعر في ظل بني عباد د٠محمد مجيد السعيد/مطبعة النعمان النجف الاشرف ط١ ١٩٧٢م٠

٧- الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس / د٠ محمد مجيد السعيد ٠

منشورات وزارة الثقافة والاعلام دار الرشيد للنشر ١٩٨٠م٠

٨- الصورة الفنية عند ابن زيدون الأندلسي عبد اللطيف يوسف عيسى (أطروحة دكتوراه) كلية الآداب جامعة الانبار١٩٩٩م٠

٩-الطبيعة في الشعر الاموي ٠عبد الامير كاظم (رسالة ماجستير) كلية الآداب جامعة بغداد١٩٨٣م٠

١٠-الطبيعة في الشعر الاندلسي ٠د٠ جودة الركابي دار الفكر بيروت ٠لبنان٠

١١- محمد بن عمار الاندلسي (دراسة أدبية تاريخية مع جمع شعره) د٠ صلاح خالص مطبعة الهدى/بغداد١٩٥٧م٠

١٢- المختار من الشعر الاندلسي ٠محمد رضوان الدايه /دار الفكر بيروت ٠لبنان

١٣- مسائل فلسفية الفن المعاصر ٠جان ماري جيوتو ٠ترجمة د٠ سامي الدروبي ٠دمشق ط٢ ١٩٦٥م٠

١٤- معجم البلدان الشهاب الدين ياقوت الحموي، صححه محمد أمين الخانجي، مطبعة السعادة بمصر ١٩٠٦م

١٥- ملامح الشعر الاندلسي د٠ عمر الدقاق، دار الشرق العربي بيروت ١٩٧٥م٠

١٦- موسوعة شعراء العصر الاندلسي د٠ محمد العريس ٠ منشورات دار اليوسف بيروت ٠لبنان ٠

١٧- في الشعر الاندلسي د٠ عدنان صالح مصطفى دار الثقافة/الدوحة٠

١٨- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب احمد بن محمد المقري التلمساني، تح محمد محي الدين عبد الحميد /مطبعة السعادة بمصر ١٩٤٩م٠

١٩- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر بن خلكان (ت٦٨١هـ) تح محمد محي الدين عبد الحميد ٠مطبعة السعادة بالقاهرة ١٩٤٨م٠